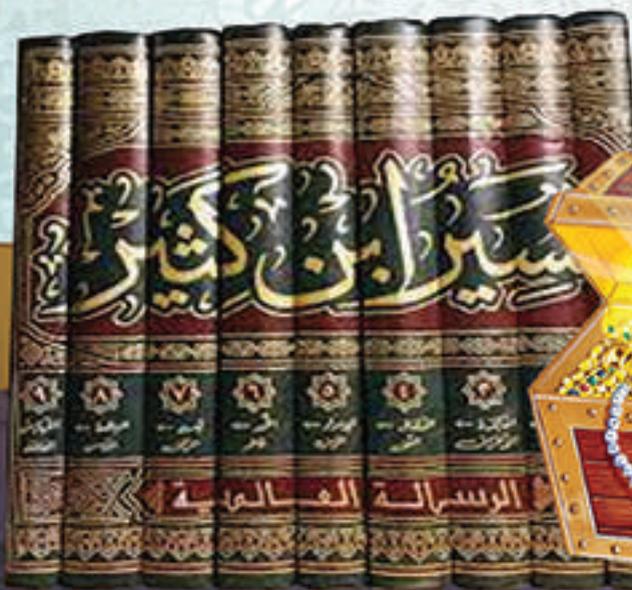


دُرٌّ مِنْ

نَفْسِ اِبْرَاهِيمَ

اِبْرَاهِيمَ مُحَمَّدَ الْيَافِعِيِّ





در
من تفسیر ابن کثیر

حقوق الطبع غير محفوظة
يحق لأي شخص طباعته وبيعه أو توزيعه

درر
من تفسير ابن كثير

﴿كُتِبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢٩)

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

فبين يديك - أيها القارئ - مائة وخمس وأربعون درّة جمعتها لك من تفسير الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ المسمّى (تفسير القرآن العظيم). وهذه الدرر والفوائد في العقيدة والأخلاق وسائر العبادات والمعاملات... وغيرها.

ولما كان الكثير من الناس لا يطلعون على هذه الكتب - ومنها تفسير ابن كثير - ولا يعرفون قيمة ما فيها من الفوائد والدروس...؛ انتقيت من هذا الكتاب هذه الدرر والفوائد في كتاب يكون في متناول الجميع؛ لتعم فائدتها، ويسهل على الجميع الاطلاع عليها، وأخذ الفوائد منها.

انتقيت من هذا الكتاب حسب ما رأيت فيه النفع والفائدة، ولا أدعي أنني جمعت كل الدرر؛ فقد يأتي بعدي من يطلع على تفسير ابن كثير؛ ليستخرج أضعاف ما استخرجه.

منهجي وعملي في هذا الكتاب:

١ - أحياناً يستشهد الإمام ابن كثير بأحاديث فيها الصحيح وفيها الضعيف والموضوع؛ لذلك لم أنقل - من هذا التفسير - إلا الأحاديث الصحيحة، وتركت أي حديث ضعيف أو موضوع استشهد به؛

فبالأحاديث الصحيحة غني عن ذلك .

٢ - عندما يرد في الكلام كلام ليس من تفسير ابن كثير - سواء كان من كلامي أو من غيره - أضعه بين معقوفين [] .

٣ - عندما ترد كلمة غير مفهومة أقوم بتوضيح معنى هذه الكلمة وتقريب معناها للقارئ؛ لتعم فائدة هذا الكتاب . وعندما أزيد توضيحًا أو معلومات لكلمة ما أضع التوضيح بين قوسين هلالين () .

٤ - دقت الكتاب إملائيًا؛ من الهمزات والحركات وعلامات الترقيم وغيرها .

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يتقبله مني، إنه جواد كريم .

إبراهيم محمد اليافعي

اليمن - يافع - المفلحي

جمادى الآخرة ١٤٤٣هـ

للتواصل مع المؤلف:

اتصال ٠٠٩٦٧٧١١١٦٨٠٧٢

اتصال وواتساب ٠٠٩٦٧٧٣٩٨٠٢١٥٣

من هو الإمام ابن كثير؟

هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير، الشيخ الإمام العلامة عماد الدين أبو الفداء ابن الشيخ شهاب الدين أبي حفص القرشي البصري الدمشقي الشافعي، المعروف بابن كثير. وُلِدَ سنة ٧٠١هـ، في قرية مجيدل ببُصْرَى الشام، وعاش في دمشق.

طفولة الإمام ابن كثير وتربيته:

كان للبيئة المحيطة بابن كثير أثر كبير في نشأته؛ فقد كان أبوه خطيباً ببلدة مجيدل القُريّة إلى أن توفّي سنة ٧٠٣هـ، وبقي ابن كثير تحت رعاية أخيه كمال الدين عبد الوهاب، الشقيق والشفيق، وترعرع في طفولته في هذه القرية مدة أربع سنوات، وهي سن الطفولة يتيمًا بعد فُقد الوالد، ولكنه امتلاً قلبه من ذكريات الطفولة، ونِعَم بآثار والده المعنوية، وحفظ أحاديث الناس عن خطب والده، وأقواله المأثورة، وأشعاره المحفوظة، وأدرك بحسّه منزلة العالم المخلص، وأثره في الحياة والمجتمع، ومكانته في القلوب والنفوس.

اتجه ابن كثير - رحمه الله تعالى - إلى تحصيل العلم منذ السن المبكر؛ ليقرّ عين والده في قبره، وليصبح كأبيه في قلوب الناس.

ولما بلغ ابن كثير السابعة من عمره، ارتحل بصحبة أخيه الشقيق عبد الوهاب إلى مدينة دمشق التي كانت مَوْئِلَ العلماء، وحاضرة العلم،

ومركز الحضارة، وينبوع العطاء، ومحط الأنظار، ومرابع المعرفة التي [يأتي] إليها العلماء والطلاب من كل حذب وصوب.

وكان أخوه عبد الوهاب بمنزلة الأب والأستاذ الأول لابن كثير، الذي أخذ منه الشيء الكثير، واستمر في ملازمته والاستفادة من علمه طوال حياته التي امتدت إلى سنة ٧٥٠هـ.

ويحدثنا ابن كثير - رحمه الله تعالى - عن رحلته إلى دمشق بصحبة أخيه عبد الوهاب، فيقول: ثم تحولنا من بعده - بعد وفاة الوالد - في سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق، صحبه: كمال الدين عبد الوهاب، وقد كان لنا شقيقاً، وبنا رفيقاً شفوفاً، فاشتغلت على يديه في العلم، فيسر الله تعالى منه ما يسر، وسهل منه ما تعسر.

واستقر ابن كثير في دمشق، وصار ابناً من أبنائها، وعالمًا من علمائها، وخطيباً ومدرساً فيها، وأحبها من قلبه فلم يفارقها حتى مات ودُفن فيها، وكان وفيًا لها؛ فكتب تاريخها، ووصف أفراحها وانتصاراتها، وبكى أحزانها وأتراحها، وشارك في أحداثها، وكان له دور فاعل في ذلك حتى صار يُشار إليه بالبنان: محدثًا ومفسرًا، ومدرسًا ورئيسًا، ومصلحًا وداعيةً، ومعلمًا ومؤرخًا.

ملاح من شخصية ابن كثير وأخلاقه:

لقد حبا الله ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بكثير من الصفات الحميدة، والشمائل الكريمة، والخلال العذبة، والتي لا يتصف بها إلا العلماء الأخيار الأفاضل؛ ومن هذه الصفات:

١ - **الحفظ:** وهب الله ابن كثير حافظة قوية، وذاكرة ممتازة، وموهبة متفوقة، فكان قادرًا على حفظ العلوم والامتون، واكتناز المعلومات، وظهر أثر ذلك في مصنفاته؛ فقد حفظ ابن كثير القرآن

الكريم وهو في الحادية عشرة من عمره، كما صرَّح بذلك في تاريخه [المسمى البداية والنهاية]، وحفظ التنبيه في الفقه الشافعي، وعرضه سنة ثماني عشرة، وحفظ مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وحفظ المتون المتنوعة في العلوم.

٢ - الاستحضار: اقترنت صفة الحفظ عند ابن كثير بصفة أخرى وهي صفة الاستحضار؛ مما يدل على المنحة الإلهية له بقوة الذاكرة، وقلة النسيان. وهو من أعظم المواهب الإلهية، وأكبر ميزة للعالم والمصنّف والفقهاء؛ لذلك كان ابن كثير يستحضر المتون والكتب والعلوم حتى لفت نظر المحققين والمحدثين، فهو ينقل من مصادر عدة، ولكنه يضع المعلومات بصيغته وأسلوبه الخاص به، مما يرجح أنه كان يكتب ويصنف من ذاكرته وحافظته، ويتصرف بذلك حسب مقتضى الحال والمقام.

٣ - خفة الروح: وهذه الصفة من الصفات الحسنة للإنسان عامّةً، ومن عوامل التفوق والنجاح في التدريس والوعظ خاصّةً، وتدل على سماحة النفس، والاهتمام بالطلاب، والتخفيف عنهم، والترويح في التدريس.

٤ - الالتزام بالحديث والسنة: من صفات ابن كثير أنه كان حريصًا على التزام السنة، والدعوة إلى اتباع السلف، وهو ما يظهر عند مراجعة مؤلفاته وكتبه؛ ولا غرابة في ذلك فهو المحدث الفقيه الحافظ لأحاديث الرسول ﷺ وكان ابن كثير رحمه الله يحارب البدع، ويدعو إلى تركها، ويساهم في إنكارها، ويفرح لإبطالها، ويسجّل هذه المشاعر والعواطف والمبادئ في كتبه ومصنفاته، وكان يتبع البدع ويتألم لوجودها، ويسعى لإبطالها، ويهمل لإلغائها.

٥ - الخلق والفضيلة والموضوعية: كانت أخلاق ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ حميدة، ويلتزم الفضائل والقيم، وسعة الصدر، والحلم، والصدقة المخلصة، والتقدير لشيوعه؛ فقد ترجم لعدد كبير منهم في تاريخه، وأثنى عليهم خيرًا، وعدّد مناقبهم، وأثبت فضائلهم، واعترف بالأخذ عن الأساتذة، وحسن الصحبة للزملاء والمعاصرين.

٦ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وهذا من المبادئ الإسلامية الرشيدة في الدعوة والنصح والإرشاد، والتكافل والتناصح بين أفراد الأمة والمجتمع، وهو واجب على كل مسلم قادر ومستطيع أن يقوم به. ويتأكد واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعاة والعلماء والمصلحين، ثم على الحكام والمحكومين؛ وكان ابن كثير يعرف واجبه في هذا الجانب الخطير، ويؤدّي حقه في مرضاة الله تعالى للحاكم والمحكومين، لا يبتغي بذلك إلا الأجر والثواب من الله تعالى، ولا يخشى في الله لومة لائم؛ فيقول الحق، ويقرر الشرع، ويؤدي الأمانة، ويبلغ حكم الله تعالى في كل الأمور والظروف والأحوال، ولو كان الأمر يتعلق بشؤون الحكم، والخلاف بين الأمراء الذين يحاولون أن يتحصنوا بفتوى كبار العلماء، ويجعلوها ذريعة لتحقيق مآربهم.

٧ - إنصاف الخصوم: يقول الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (٥٨). والعدل مطلوب من الحكام والقضاة، ومن كل ذي ولاية وسلطة مهما تنوعت واختلفت وتفاوتت درجاتها، وذلك بإنصاف الناس حتى الخصوم، وحينئذ يصبح الإنسان من السابقين إلى ظل الله تعالى يوم القيامة.

والعدل من الفضائل، وخاصةً إذا كان الأمر مع الخصم، فهو

أعلى درجات العدل بأن ينصف الإنسان خصمه من نفسه، وهذه المرتبة العليا لا يبلغها إلا القلّة، وتدل على أن صاحبها بلغ رتبة عالية من تطبيق أحكام الشرع وآدابه، ومراقبة الله تعالى في ذلك، حتى يجاهد نفسه فيخضعها للحق، ويقف بها عند جادة الصواب، ولا يستسلم لهواه وأهوائه.

وهذا ما حدث مع ابن كثير رحمته في ترجمته لكثير من خصومه في الرأي والفكر والمواقف، فيصنفهم بالحق والعدل، ولا يتجنّى عليهم، ولا ينقصهم صفة لهم؛ ومن الشواهد الكثيرة على ذلك نجد في (البداية والنهاية) أنه كان بين ابن كثير وبين القاضي تقي الدين السبكي خصومة فكرية، وتشاء الظروف أن تُوجّه اتهامات إلى القاضي بالتفريط في أموال الأيتام، وطُلب من المفتين أن يضعوا خطوطهم بتثبيت الدعوى ضده لتغريمه ومحاكمته، ويصل الأمر إلى صاحبنا العلامة ابن كثير ذي الخُلُق الكريم، والموقف العادل، فيأبى الكتابة، ويُنصف القاضي السبكي، ويوقف الافتراء والاتهام إلى أن يتبين الحق، ويسجّل ذلك في تاريخه في أحداث سنة ٧٤٣هـ.

٨ - الإصلاح الديني: نزل الإسلام صافياً من السماء، وبلغه رسوله صلوات الله وسلامه حتى لحق بالرفيق الأعلى، وقد ترك أمته على المحجة البيضاء، والتزم الصحابة - رضوان الله عليهم - بهذا الطريق القويم، وأدّوا الأمانة، ونشروا الإسلام، وسار التابعون وتابعو التابعين على نهجهم، فكانوا خير القرون في تطبيق الإسلام، ونصاعة مبادئه. ثم بدأ يعلق به الغبار مع الأيام، وتُضاف إليه بعض الأمور التي لا تتفق مع جوهر الدين، وتُلحق به البدع والخرافات شيئاً فشيئاً، وقد تستشري في بعض الأحيان لتشوه صورة الإسلام النقية.

وهنا يأتي دور العلماء والدعاة والمصلحين الذين ينادون بالدعوة إلى تطبيق الإسلام، والعودة إلى مبادئه الصافية، وتطهيره من البدع والخرافات. وقد ظهر في القرن السابع والثامن الهجريين علماء أفذاذ يمثلون هذا الاتجاه الإصلاحية، وكان الأشهر والأبرز في هذه المدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، الذي وقف في وجه البدع والخرافات الموجودة والمتشعبة في ذلك الوقت، ورفع الراية في وجه المبتدعة وغلاة الصوفية. وكان من نتيجة ذلك أن انقسم العلماء والفقهاء والحكام والناس في شأن ابن تيمية إلى فريقين، فتحامل عليه علماء الصوفية، وكثير من الفقهاء والقضاة حتى وشوا به عند الحكام، فوقف بعضهم بجانبه، والبعض الآخر وقف ضده، وكان من الذين وقفوا مع ابن تيمية وناصروه ابن كثير رحمته الله.

مؤلفات ابن كثير:

- ١ - تفسير القرآن العظيم.
- ٢ - البداية والنهاية.
- ٣ - التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل. جمع فيه كتابي شيخه المزي والذهبي؛ وهما: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، مع زيادات مفيدة في الجرح والتعديل.
- ٤ - تخريج أحاديث أدلة التنبيه في فروع الشافعية.
- ٥ - تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه.
- ٦ - فضائل القرآن.
- ٧ - كتاب في السماع.
- ٨ - النهاية في الفتن والملاحم.

- ٩ - المقدمات .
- ١٠ - مسند عمر بن الخطاب والآثار المروية عنه .
- ١١ - الهدى والسّنن في أحاديث المسانيد والسّنن . وهو المعروف بجامع المسانيد، جمع فيه بين مسند الإمام أحمد والبخاري وأبي يعلى ومعجمي الطبراني مع الكتب الستة: الصحيحين والسنن الأربعة، ورتبه على الأبواب .
- ١٢ - طبقات الشافعية .
- ١٣ - شرع في شرح صحيح البخاري؛ لكنه لم يكمله .
- ١٤ - شرع في كتاب كبير في الأحكام، وصل فيه إلى الحج .
- ١٥ - اختصار علوم الحديث، اختصر فيه مقدمة ابن الصلاح المعروفة، وسمّاه (الباعث الحثيث) .
- ١٦ - مسند الشيخين؛ يعني أبا بكر وعمر .
- ١٧ - السيرة النبوية .
- ١٨ - الاجتهاد في طلب الجهاد .
- ١٩ - قصص الأنبياء، وغيرها .

منهج ابن كثير في تفسيره:

- أ - تفسير الآية بعبارة سهلة، وبأسلوب مختصر، يوضح المعنى العام للآية الكريمة .
- ب - تفسير الآية بآية أخرى إن وجدت؛ حتى يتبين المعنى، ويظهر المراد، وقد يذكر ابن كثير عدة آيات في تفسير الآية الأولى، وكأنه يجمع بين الآيات المتشابهة والمتماثلة في المعنى، والمتحدة في الموضوع، فتأتي الآيات المتناسبة في مكان واحد .

ج - رواية الأحاديث بأسانيدھا غالباً، وبغير إسناد أحياناً؛ لإلقاء الضوء النبوي على معنى الآية.

د - تفسير القرآن بأقوال الصحابة؛ حيث يُردف ابن كثير في تفسير الآية ما وصله من أقوال الصحابة في تفسير هذه الآية، حسب المؤهلات التي يمتلكونها.

هـ - الاستئناس بأقوال التابعين وتابعي التابعين ومن يليهم من علماء السلف، وخاصةً أهل القرون الأولى الذين شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية، وحملوا الدعوة والإسلام.

و - الأعلام والرجال: حرص ابن كثير على ذكر الأعلام الذين نُقلت عنهم الآراء؛ ليكون دقيقاً في نقله، مع المحافظة على الأمانة العلمية؛ ف جاء تفسيره زاخراً بأسماء العلماء وأعلام الرجال.

وفاة الإمام ابن كثير:

اتفق المؤرخون على أن ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تُوْفِّي بدمشق يوم الخميس، السادس والعشرين من شعبان سنة ٧٧٤هـ، عن أربع وسبعين سنة، وكانت جنازته حافلة ومشهودة، ودُفن بوصية منه في تربة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ؛ لمحَبته له، وتأثره به.

تنويه: نقلت هذه الترجمة من موقع قصة الإسلام، على شبكة الإنترنت.





سُورَةُ الْبَقَرَةِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٢).

كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال؛ فإن الصلاة حق الله وعبادته؛ وهي مشتملة على توحيده، والثناء عليه، وتمجيده، والابتغال إليه، ودعائه، والتوكل عليه. والإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وأولى الناس بذلك القربات، والأهلون، ثم الأجانب؛ فكلٌّ من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣).

❁ الثانية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (٤).

عن مجاهد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين، وآيتان في نعت الكافرين، وثلاث عشرة في المنافقين، فهذه الآيات الأربع عامة في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي، وكتابي من إنسي وجني، وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى، بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ، وما جاء به من قبله من الرسل والإيقان بالآخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك، وقد

أمر الله تعالى المؤمنين بذلك، كما قال ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكُنْبِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكُنْبِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ . وقال ﴿وَلَا تُجَدِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فُوقُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي ءُنزِلَ إِلَيْنَا ءَانزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِدٌ﴾ . وقال تعالى ﴿يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَاتُوا الْكُنْبَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ وقال تعالى ﴿قُلْ يَتَّهَلَّ الْكُنْبِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا ءُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ . وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك؛ فقال تعالى ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا ءُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ رُسُلِهِ﴾ . وقال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفِرُّوٓا۟ بَيْنَ ءَحَدٍ مِّنْهُمْ ءَأُولَِٔكَ سَوفَ يُؤْتِيهِمُ ءُجْرَهُمُ﴾ . وغير ذلك من الآيات .

الثالثة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ ءَالْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ .

وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية؛ لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلاف ذلك؛ من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً، وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم، وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، وبنو النضير، وبنو قريظة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ - المدينة، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً؛ لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة [وقوة] تُخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع [وسالم] اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي

المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته، وأعلى الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول - وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم، فجاءهم الخير وأسلموا، واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر - قال: هذا أمر قد توجه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد، لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر ويترك ماله، وولده، وأرضه؛ رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

ولهذا نبه الله - سبحانه - على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون، فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم، ومن اعتقاد إيمانهم، وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار، أن يُظن بأهل الفجور خير.

الرابعة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها ربهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته، وكذبهم [على] المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشك والريب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً؛ فذلك إفساد المنافقين في الأرض، وهم يحسبون أنهم يفعلهم ذلك مصلحون فيها.

الخامسة: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهُمْ فِي ظُلْمَتٍ لَّا يَبْصُرُونَ﴾ (٧).

وتقدير هذا المثل: أن الله - سبحانه - شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنس بها فبينما هو كذلك؛ إذ طفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر؛ فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر عنهم تعالى في غير هذا الموضع. والله أعلم.

السادسة: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٢٢).

هذه الآية دالة على توحيدته تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع، فقال: وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب وقد سُئِلَ: ما الدليل على وجود الرب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله، إن البعرة لتدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟

وعن أبي حنيفة رضي الله عنه أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإنني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينة في البحر فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها وتخرق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد. فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل. فقال: ويحكم، هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع! فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه.

وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد، تأكله الدود؛ فيخرج منه الحرير، وتأكله النحل؛ فيخرج منه العسل، وتأكله الشاة والبعير والأنعام؛ فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الطباء (أي الغزال)؛ فيخرج منها المسك؛ وهو شيء واحد.

وقال آخرون: من تأمل هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار المنيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في أنفسها سير يخصصها، ونظر إلى البحار الملتفة للأرض من كل جانب، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها، وكذلك هذه الأنهار السارحة من قُطر إلى قُطر لمنافع العباد، وما ذراً في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأرايح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء؛ علم وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لا إله غيره ولا رب سواه عليه توكلت وإليه أنيب. والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً.

السابعة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وهذه معجزة؛ وهو أنه أخبر أن هذا القرآن لا يُعارض بمثله أبداً وكذلك وقع الأمر، لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن، وأتى يتأتى ذلك لأحد، والقرآن كلام الله خالق كل شيء، وكيف يشبهه كلام الخالق كلام المخلوقين؟!

القرآن جميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة، سواء كانت مبسطة أو وجيزة، وسواء تكررت أم لا، وكلما تكررت حلا وعلا، لا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصُّمِّ الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن، كما قال في الترغيب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ وقال ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦﴾﴾ وقال في الترهيب ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ وقال ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ وقال في الزجر ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ وقال في الوعظ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ مَّا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة، وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن

كل قبيح رذيل دنيء؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأوعها سمعك؛ فإنه خير ما يأمر به أو شر ينهى عنه. ولهذا قال تعالى ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم؛ بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة المثلى، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم.

◉ الثامنة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبَرْتُمْ فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (١٧).

[يصف] تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم؛ فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب - وهو التوراة -؛ فحرفوها وبدلوها، وخالفوا أوامرها وأولوها. وأرسل الرسل والنبیین من بعده الذين يحكمون بشريعته ولهذا قال ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البيئات، وهي المعجزات. قال ابن عباس: من إحياء الموتى، وخلق من الطين كهية الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبرائه الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأيينه بروح القدس - وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم

على صدقه فيما جاءهم به؛ فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء ﷺ أسوأ المعاملة، وفريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه؛ وما ذاك إلا لأنهم كانوا يأتونهم بالأموال المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالزمامهم بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها؛ فلهذا كان يشق ذلك عليهم؛ فيكذبونهم، وربما قتلوا بعضهم؛ ولهذا قال تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾.

التاسعة: ﴿بِآيَاتِهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَيْنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَأَسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص؛ فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا، يقولون ﴿رَعَيْنَا﴾ يورثون بالرعونة [والضعف] ويقصدون بذلك رسول الله ﷺ؛ كما قال تعالى ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾.

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم؛ والسام هو الموت. ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ عليكم؛ وإنما يُستجاب لنا فيهم، ولا يُستجاب لهم فينا.

والغرض؛ أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً؛ ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في أقوالهم وأفعالهم، ولباسهم وأعيادهم، وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولم تُقرّر عليها.

العاشرة: ﴿الَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧﴾﴾ .

يرشد تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر وهو المتصرف، فكما خلقهم كما يشاء، ويُسعد من يشاء، ويُشقي من يشاء، ويصح من يشاء، ويمرض من يشاء، ويوفق من يشاء، ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عبادته بما يشاء؛ فيحل ما يشاء، ويحرم ما يشاء، ويبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

الحادية عشرة: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ .

يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طرائق الكفار من أهل الكتاب، ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم.

الثانية عشرة: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه؛ حيث ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملّتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا ﴿يَحْنُ أَبْتَأُوهَ اللَّهُ وَأَحِبِّتُوهُ﴾؛ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا

أيامًا معدودة، ثم ينتقلون إلى الجنة؛ ورد عليهم تعالى في ذلك. وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة؛ فقال ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾.

الثالثة عشرة: ﴿يَبْنَیْ إِسْرَءِیْلَ اذْکُرُوا نِعْمَتِیَ الَّتِیْ اَنْعَمْتُ عَلَیْکُمْ وَاِنِّیْ فَضَّلْتُکُمْ عَلَی الْعَالَمِیْنَ﴾.

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة، وكُرِّرت هاهنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم واسمه وأمره وأمته، يحذرهم من كتمان هذا، وكتمان ما أنعم به عليهم، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، من النعم الدنيوية والدينية، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه، والحيدة عن موافقته، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

الرابعة عشرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ اِلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ اِلَيْكُمْ مِنْ رَّبِّكُمْ لَا نَفَرُّ بَيْنَ اَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ أولئك هم الكافرون حقاً.

الخامسة عشرة: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٢٥).

جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا، وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي؛ من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك؛ فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا.

وأما الحسنة في الآخرة؛ فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة.

وأما النجاة من النار؛ فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا؛ من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

السادسة عشرة: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَّرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٦).

أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يُرضي الله عنهم، وسَخَرُوا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبذلوا ابتغاء وجه الله؛ فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم، ومسيرهم ومأواهم؛ فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل السافلين.

السابعة عشرة: ﴿إِنْ بُدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا
الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرُ عَنْكُمْ مِّنْ سَعْيَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ﴾ (٢٧).

فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن
الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة؛ من اقتداء الناس به،
فيكون أفضل من هذه الحثية، والأصل أن الإسرار أفضل، لهذه الآية،
ولما ثبت في الصحيحين، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله». وذكر منهم: «ورجل
تصدق بصدقة فأخفاها؛ حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

الثامنة عشرة: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٨).

هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله، وابتغاء مرضاته في جميع
الأوقات من ليل أو نهار، والأحوال من سر وجهار، حتى إن النفقة على
الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله
إلا ازددت بها درجة ورفعة، حتى ما تجعل في [فم] امرأتك».

التاسعة عشرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا
الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٧٧).

[في هذه الآية يمدح الله] المؤمنين بربهم؛ المطيعين أمره، المؤدّين
شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما
أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيامة من التّبعات آمنون.

العشرين: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمَ تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر، ويحذرهم عقوبته.





سُورَةُ الْعَمْرَانِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾.

هذه الآية فيها تعريض بل تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق، كما خلق الله سائر البشر؛ لأن الله - تعالى - صوّره في الرحم وخلقه كما يشاء، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصرارى وقد تقلب في الأحشاء، وتنقل من حال إلى حال!

❁ الثانية: ﴿رُزِنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْبُ الْمَعَادِ ﴿١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملذات من النساء والبنين؛ فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «ما تركت بعدي فتنة أضرب على الرجال من النساء». فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج «الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة؛ إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله». وقوله في

الحديث الآخر: «حُبُّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءِ وَالطَّيِّبِ وَجُعِلَتْ قَرَّةٌ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة».

وحب المال - كذلك - تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء؛ فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقربات ووجوه البر والطاعات؛ فهذا ممدوح محمود عليه شرعاً.

الثالثة: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ لِذٰلِكَ اَتَقَوُّاْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ خٰلِدِيْنَ فِيْهَا وَاَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنْ اَللّٰهِ وَاللّٰهُ بِصِيْرٍ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ﴾؛ أي قل يا محمد للناس: أخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة؟. ثم أخبر عن ذلك فقال ﴿لِلَّذِيْنَ اَتَقَوُّاْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتْ تَجْرِيْ مِنْ تَحْتِهَا الْاَنْهٰرُ﴾؛ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة؛ من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك؛ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ماكثين فيها أبد الآبدين لا يبعثون عنها جِوْلاً، وأزواج مطهرة من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس، وغير ذلك مما يعتري نساء الدنيا، ويحل عليهم رضوانه؛ فلا يسخط عليهم بعده أبداً.

الرابعة: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

إخبار من الله تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتى خُتِموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقي الله بعد بعثته محمداً ﷺ بدين على غير شريعته؛ فليس بمتقبل؛ كما قال تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

الخامسة: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلْتُمُونِي إِنْ أَهْتَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (٢٠).

هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته - صلوات الله وسلامه عليه - إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾. وقوله ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١١).

السادسة: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٦).

في هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة؛ لأن الله حوّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقليين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ولا رسولاً من الرسل؛ في العلم بالله

وشريعته وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية، وكشفه عن حقائق الآخرة ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار؛ ولهذا قال تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ أَلْمَلِكِ نُؤْتِي أَلْمَلِكَ مَن نَّشَاءُ وَنَنْزِعُ أَلْمَلِكَ مِمَّن نَّشَاءُ وَنُعِزُّ مَن نَّشَاءُ وَنُذِلُّ مَن نَّشَاءُ بِيَدِكَ أَلْحَيِّرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٦)؛ أي أنت المتصرف في خلقك، الفعّال لما تريد.

السابعة: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوْهُ يَعْلَمُهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩).

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السماوات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩)؛ أي قدرته نافذة في جميع ذلك.

وهذا تنبيه منه لعباده على الخوف منه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم؛ فإنه يُمهّل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر.

الثامنة: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهُ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣١).

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو

على الطريقة المحمدية؛ فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر؛ حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله؛ كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد».

التاسعة: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٣٢).

دلت [الآية] على أن مخالفته ﷺ في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه؛ حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل ورسول الله إلى جميع الثقيلين الجن والإنس، الذي لو كان الأنبياء والمرسلون وأولو العزم منهم في زمانه؛ لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته.

العاشرة: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىٌ وَإِنْ يُقْتَلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدْبَارَ ثُمَّ لَا

يُنْصِرُونَ﴾ (٣٣).

يقول تعالى مخبراً عباده المؤمنين ومبشراً لهم أن النصر والظفر لهم على أهل الكتاب الكفرة؛ فقال ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذىٌ وَإِنْ يُقْتَلُوكُمْ يُولُوكُمْ أَلَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصِرُونَ﴾ (٣٣) وهكذا وقع؛ فإنهم يوم خيبر أذلهم الله وأرغم آنافهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة؛ كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الأبدين ودهر الدهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى بن مريم عليه السلام وهم كذلك، ويحكم ﷺ بشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام؛ فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام.

الحادية عشرة: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْجِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ .

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت، كقوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾؛ فهو تعالى وحده هو الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون، وكذلك الملائكة وحملة العرش، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء، فيكون آخرًا كما كان أولاً .

وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت، فإذا انقضت المدة وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها من صلب آدم وانتهت البرية؛ أقام الله القيامة وجازى الخلائق بأعمالها جليلها وحقيرها، كثيرها وقليلها، كبيرها وصغيرها، فلا يظلم أحدًا مثقال ذرة؛ ولهذا قال ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

الثانية عشرة: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَفُوا بِهِ ذُنُوبًا قَلِيلًا فَبُئِسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ .

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوّهوا بذكره في الناس ليكونوا على أهبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه؛ فكنتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف، والحظ الدنيوي السخيف؛ فبئست الصفقة صفقتهم، وبئست البيعة بيعتهم .

وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ويسلك بهم مسلكهم، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع

الدال على العمل الصالح، ولا يكتموا منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار».

الثالثة عشرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ .

أي: هذه [السماء] في ارتفاعها واتساعها، وهذه [الأرض] في انخفاضها وكثافتها، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة؛ من كواكب سيارات، وثوابت وبحار، وجبال وأشجار ونبات وزروع وثمار، وحيوان ومعادن، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ﴿وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾؛ أي: تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر؛ فتارة يطول هذا ويقصر هذا، ثم يعتدلان، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً، ويقصر الذي كان طويلاً، وكل ذلك تقدير العزيز الحكيم، ولهذا قال ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾؛ أي العقول التامة الذكية التي تدرك الأشياء بحقائقها.

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال فيهم ﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (١٠٥)، ومدح عباده المؤمنين ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقَعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قائلين ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾؛ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً، بل بالحق لتجزى الذين أسأؤوا بما عملوا، وتجزى الذين أحسنوا بالحسنى،

ثم نَزَّهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ ؛ أي عن أن تخلق شيئًا باطلاً ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١) ؛ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل، يا من هو منزَّه عن النقائص والعيب والعبث قِنَا من عذاب النار بحولك وقوتك، ووقفنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم، وتُجِيرُنَا به من عذابك الأليم.





سُورَةُ النِّسَاءِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾.

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الحالات، فهو المستحق منهم أن يوحده، ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته، ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين، وكثيراً ما يقرن الله - سبحانه - بين عبادته والإحسان إلى الوالدين؛ كقوله ﴿إِن شَكَرْتُمْ لِي وَأَزِدْكُمْ فِي رِزْقِي﴾. وكقوله ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾. ثم عطف على الإحسان إلى الوالدين الإحسان إلى القربات من الرجال والنساء فقال ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾؛ وذلك لأنهم قد فقدوا من يقوم بمصالحهم، ومن ينفق عليهم، فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم، ثم قال ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾؛ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون ما يقوم بكفائتهم؛ فأمر الله بمساعدتهم بما تتم به كفائتهم وتزول به ضرورتهم.

❁ الثانية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

وهذا أمر من الله ﷻ بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول

الدين وفروعه أن يُردَّ التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَخْلَقْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ فما حكم به كتاب الله وسنة رسوله وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ فدل على أن من لم يتحاكم في مجال النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾؛ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والرجوع في فصل النزاع إليهما خير ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (٥٩)؛ أي وأحسن عاقبة ومآلاً.

الثالثة: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ عَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط؛ أي بالعدل، فلا يعدلوا [ويحيدوا] عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه.

وقوله ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ كما قال ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾؛ أي: ليكن أداؤها ابتغاء وجه الله، فحينئذ تكون صحيحة عادلة حقاً، خالية من التحريف والتبديل والكتمان؛ ولهذا قال ﴿وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾؛ أي: اشهد الحق ولو عاد ضررها عليك وإذا سُئِلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن

كان مضرة عليك، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجًا ومخرجًا من كل أمر يضيق عليه.

وقوله ﴿أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾؛ أي: وإن كانت الشهادة على والديك وقربانتك، فلا تراعهم فيها، بل اشهد بالحق وإن عاد ضررها عليهم، فإن الحق حاكم على كل أحد، وهو مقدم على كل أحد. وقوله ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾؛ أي: لا ترعاه لغناه، ولا تشفق عليه لفقره؛ الله يتولاهما، بل هو أولى بهما منك، وأعلم بما فيه صلاحهما.

وقوله ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾؛ أي: فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغضة الناس إليكم، على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال كان، كما قال تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.





سُورَةُ الْأَنْعَامِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى﴾: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿١﴾﴾.

قال تعالى واعظًا ومحذرًا لقريش أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا وأكثر أموالًا وأولادًا واستغلالًا للأرض وعمارة لها؛ فقال ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ﴾؛ أي من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا﴾؛ أي شيئًا بعد شيء ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾؛ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض؛ استدراجًا وإملاء لهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾؛ أي بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿١﴾﴾؛ أي فذهب الأولون كأمس الذهب وجعلناهم أحاديث، وأنشأنا جيلًا آخر؛ لنختبرهم، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاكهم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم [مثل] ما أصابهم، فما أنتم بأعز على الله منهم، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم؛ فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم، لولا لطفه وإحسانه.

الثانية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيِّنَا نُرْدُ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ .

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا ﴿يَلَيِّنَا نُرْدُ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٧﴾ .
يتمنون أن يُرَدُّوا إلى الدار الدنيا؛ ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا بآيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين.

الثالثة: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ .

قوله ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَؤُا﴾
تقريع لهم وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدار الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان، ظانين أن تلك تنفعهم، فإذا كان يوم القيامة؛ تقطعت الأسباب، وانزاح الضلال، وضل عنهم ما كانوا يفترون، ويناديهم الرب عَلَيْكُمْ على رؤوس الخلائق ﴿أَيْنَ شُرَكَؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ .

ثم قال تعالى ﴿لَقَدْ نَقَطَعَ بَيْنَكُمْ﴾؛ أي لقد انقطع ما بينكم من الوصلات والأسباب والوسائل ﴿وَضَلَّ عَنْكُمْ﴾؛ وذهب عنكم ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ من رجاء الأصنام، كما قال ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأُوا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ﴿١٦٦﴾ وقال الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿١٦٧﴾ .

الرابعة: ﴿فَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ .

أي خالق الضياء والظلام، كما قال في أول السورة ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾؛ فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح؛ فيضيء الوجود، ويستنير الأفق، ويضمحل الظلام، ويذهب الليل [بظلامه]، ويجيء النهار بضياءه وإشراقه، كما قال تعالى ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْبُهُ حَيْثًا﴾؛ فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه .

وقوله ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾؛ أي يجريان بحساب مقنن مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء؛ فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا .

وقوله ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٩٨﴾﴾؛ أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يُمانع ولا يُخالف، العليم بكل شيء، فلا يعزب (أي لا يغيب) عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

وكثيراً ما إذا ذكر الله تعالى خلق الليل والنهار والشمس والقمر؛ يختم الكلام بالعزة والعلم، كما ذكر في هذه الآية، وكما في قوله ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾، ولما ذكر خلق السماوات والأرض وما فيهن في أول سورة فصلت قال ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ .

الخامسة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلْقَ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ .

يقول تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مَّخَلِّفَ الْأَرْضِ﴾؛ أي جعلكم تعمرون الأرض جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، وخلفاً بعد سلف.

وقوله ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾؛ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوئ، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله ﴿مَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾. وقوله تعالى ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (٢٦)، وقوله ﴿لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَيْنَاكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحنكم به؛ ليختبر الغني في غناه ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره.

وقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٥) ترهيب وترغيب، أن حسابه وعقابه سريع ممن عصاه وخالف رسله، ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٦٧) لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب.

وكثيراً ما يقرن تعالى في القرآن بين هاتين الصفتين، كما قال تعالى ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)، وقوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (٦١)، وقوله ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، وغير ذلك من الآيات المشتملة على الترغيب والترهيب؛ فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها، وتارة بهذا وبهذا؛ لينجع [وينفع] في كل بحسبه. جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر، وترك ما عنه نهى وزجر، وصدقه فيما أخبر، إنه قريب مجيب سميع الدعاء، جواد كريم وهاب.



سُورَةُ الْأَعْرَافِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١﴾﴾.

يقول تعالى ممتنًا على عبده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قرارًا، وجعل لها رواسي وأنهارًا، وجعل لهم فيها منازل وبيوتًا، وأباح منافعها، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها، وجعل لهم فيها معاش؛ أي مكاسب وأسبابًا يتجرون فيها، ويتسببون أنواع الأسباب، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك، كما قال تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿١٣٤﴾﴾.

الثانية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم آدم، وبيّن لهم عداوة عدوهم إبليس، وما هو منطوق عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم؛ ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه، فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بيده من طين لازب، وصوره بشرًا سويًا ونفخ فيه من روحه، وأمر

الملائكة بالسجود له تعظيمًا لشأن الرب تعالى وجلاله، فسمعوا كلهم وأطاعوا؛ إلا إبليس لم يكن من الساجدين.

الثالثة: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسَجَّدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (١٧)

وقول إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب، كأنه امتنع من الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، يعني (وأنا خير منه)، فكيف تأمرني بالسجود له؟ ثم بين أنه خير منه، بأنه خلق من نار، والنار أشرف مما خلقت منه، وهو الطين، فنظر اللعين إلى أصل العنصر، ولم ينظر إلى التشريف العظيم؛ وهو أن الله تعالى خلق آدم بيده، ونفخ فيه من روحه، وقاس قياسًا فاسدًا في مقابلة نص قوله تعالى ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (٢٩)؛ فشذ من بين الملائكة بترك السجود؛ فلهذا أبلس من الرحمة؛ أي أيس من الرحمة، فأخطأ في قياسه ودعواه أن النار أشرف من الطين أيضًا، فإن الطين من شأنه الرزانة والحلم والأناة والتثبت، والطين محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح. والنار من شأنها الإحراق والطيش والسرعة؛ ولهذا خان إبليس عنصره، ونفع آدم عنصره في الرجوع والإنابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب التوبة والمغفرة.





سُورَةُ التَّوْبَةِ

ومنها جمعت هاتين الصورتين:

﴿الْأُولَى﴾: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم.

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان؛ فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم - أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه - فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك؛ وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنه؟!!

وأما أهل السنة فإنهم يترضون عن رضي الله عنه، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون.

الثانية: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام؛ ولهذا بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة، والطائف، واليمن واليمامة، وهجر، وخيبر، وحضرموت، وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجا، شرع في قتال أهل الكتاب؛ فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب، وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام لكونهم أهل الكتاب؛ فبلغ تبوك، وكان ذلك سنة تسع من هجرته ﷺ .

ثم اشتغل في السنة العاشرة بحجته حجة الوداع . ثم عاجلته المنية - صلوات الله وسلامه عليه - بعد الحجة بأحد وثمانين يوماً؛ فاختره الله لما عنده .

وقام بالأمر بعده وزيره وصديقه وخليفته أبو بكر رضي الله عنه وقد مال الدين ميلاً كاد أن [يسقط]؛ فثبته الله تعالى به؛ فوطد القواعد، وثبت الدعائم، ورد شارذ الدين وهو راغم، ورد أهل الردة إلى الإسلام، وأخذ الزكاة ممن منعها من الطعام، وبين الحق لمن جهله، وأدى عن الرسول ما حملة . ثم شرع في تجهيز الجيوش الإسلامية إلى الروم عبدة الصلبان وإلى الفرس عبدة النيران؛ ففتح الله ببركة [خلافته] البلاد، وأرغم أنفس كسرى وقيصر ومن أطاعهما من العباد، وأنفق كنوزهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك رسول الإله .

وكان تمام الأمر على يدي وصيه من بعده، وولي عهده الفاروق الأواب، شهيد المحراب، أبي حفص عمر بن الخطاب؛ فأرغم الله به

أنوف الكفرة الملحدين، وقمع الطغاة والمنافقين، واستولى على الممالك شرقاً وغرباً، وحملت إليه خزائن الأموال من سائر الأقاليم بُعداً وقرباً؛ ففرقها على الوجه الشرعي، والسبيل المرضي.

ثم لما مات شهيداً وقد عاش حميداً؛ أجمع الصحابة من المهاجرين والأنصار على خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان شهيد الدار؛ فظهر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وعلت كلمة الله وظهر دينه، وبلغت الأمة الحنيفية من أعداء الله غاية مآربها، فكلما علوا أمة انتقلوا إلى من بعدهم، ثم الذين يلونهم من العتاة الفجار، امتثالاً لقوله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، وقوله تعالى ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن، غليظاً على عدوه الكافر، كما قال تعالى ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقال تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾، وقال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (١٩٤)؛ أي قاتلوا الكفار، وتوكلوا على الله، واعلموا أن الله معكم إن اتقيتموه وأطعتموه.

وهكذا الأمر لما كانت القرون الثلاثة - الذين هم خير هذه الأمة - في غاية الاستقامة، والقيام بطاعة الله تعالى، لم يزالوا ظاهرين على عدوهم، ولم تنزل الفتوحات كثيرة، ولم تنزل الأعداء في سفال وخسار؛ ثم لما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات بين الملوك؛ طمع الأعداء في أطراف البلاد، وتقدموا إليها، ثم تقدموا إلى حوزة الإسلام؛ فأخذوا من الأطراف بلداناً كثيرة، ثم لم يزالوا حتى استحوذوا على كثير من بلاد الإسلام، والله سبحانه الأمر من قبل ومن بعد.

فكلما قام ملك من ملوك الإسلام، وأطاع أوامر الله، وتوكل على الله؛ فتح الله عليه من البلاد، واسترجع من الأعداء بحسبه، وبقدر ما فيه من ولاية الله. والله المأمول أن يمكن المسلمين من نواصي أعدائه الكافرين، وأن يعلي كلمتهم في سائر الأقاليم، إنه جواد كريم.





سورة التين

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنذُرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١﴾﴾.

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك؛ فلهذا لا يستجيب لهم - والحالة هذه - لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾؛ أي لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك؛ لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم».

❁ الثانية: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زِينٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر بأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في

كشفها وزوالها عنه في حال اضطجاعه وعوده وقيامه، وفي جميع أحواله، فإذا فرج الله شدته وكشف كربته؛ أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شيء ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مَّسَّهُ﴾.

ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦). فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد؛ فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وكقول رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

الثالثة: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَرَّتْ أَهْلَهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَعَنَّ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١٤).

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بما أنزل من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام من [أعلاف] وقضب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾؛ أي زينتها الفانية، ﴿وَازْبَيَّتْ﴾؛ أي: حسنت بما خرج من رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَطَرَّتْ أَهْلَهَا﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾؛ أي على جذاها وحصادها، [فبينما] هم كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأبيست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ

مَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴿٤٣﴾؛ أي: يبسا بعد تلك الخضرة والنضارة، ﴿كَانَ لَمْ تَغْرَبَ بِالْأَمْسِ﴾؛ أي كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك؛ وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن.

ثم قال تعالى ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾؛ أي نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعا، مع اغترارهم بها، وتفلتها منهم.

وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز، فقال في سورة الكهف ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرًا﴾ ﴿٤٥﴾.

الرابعة: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿١٥﴾.

لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام؛ أي من الآفات، والنقائص والنكبات.

الخامسة: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۗ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١٦﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ﴿١٦﴾.

وقوله ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك - أيضا -، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحدور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة

أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلهم ورحمته. وقد وردت في ذلك أحاديث صحيحة ومنها هذا الحديث:

عن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه». فيقولون: وما هو؟ ألم يثقل موازيننا، وبييض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، وينجنا من النار؟. قال: «فيكشف لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم».

السادسة: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا صفاته، ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي من الكتب المتقدمة، ومهمناً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

السابعة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

أي إن ادعيتهم وافتريتهم وشككتهم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذبًا: إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة مثله؛ أي من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم - إن كانوا صادقين في دعواهم - فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده، واستعينوا بمن شئتم، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿١٨٨﴾﴾، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ وكذا في سورة البقرة تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبدًا، فقال ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ... ﴿٢٤﴾﴾ .

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم له انقيادًا، كما عرف السحرة - لعلمهم بفنون السحر - أن هذا الذي فعله موسى ﷺ لا يصدر إلا عن مؤيد مُسَدِّدٍ مرسل من الله، وأن هذا لا

يُستطاع لبشر إلا بإذن الله . وكذلك عيسى عليه السلام بُعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضى؛ فكان يُبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله؛ ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

الشامنة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾﴾.

يخبر تعالى نبيه - صلوات الله وسلامه عليه - أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة ولحظة، وأنه لا يعزب [ولا يغيب] عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة في قوله ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلِكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾، وقال تعالى ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦٦﴾﴾؛ وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٧٧﴾ الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٧٨﴾ وَتَقْلَبُكَ فِي السَّجْدَيْنِ ﴿٧٩﴾﴾.

التاسعة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

كثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر أن ربى هذا الذي يحذر منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم [إلى مدين]، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه؛ ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وأدعى ما ليس له، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بني إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون ويحوظهما بعنايته، ويحرسهما بعينه التي لا تنام، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها، وصمم فرعون وملؤه على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة؛ حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين .

العاشرة: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ .

يرشد تعالى عباده إلى التفكير في [نعمه] وما خلق في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، مما في السماوات من

كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار واختلافهما، وإيلاج أحدهما في الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذراً فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخرٌ مذلل للسالكين؛ يحمل سفنهم؛ ويجري بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١١)؛ أي وأي شيء [تنفع] الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كما قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٩٦) ﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ (٩٧).





سورة هود

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الاولى﴾: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

يذكر [الله] السعداء؛ وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فأمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الإتيان بالطاعات وترك المنكرات، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات، والسرر المصفوفات، والقطوف الدانيات، والفرش المرتفعات، والحسان الخيرات، والفواكه المتنوعات، والمآكل المشتهيات والمشارب المستلذات، والنظر إلى خالق الأرض والسماوات، وهم في ذلك خالدون، لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون، ولا يبصقون ولا يتمخّطون، إن هو إلا رشح مسك يعرقون.

﴿الثانية﴾: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِينَ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٤﴾.

ضرب الله تعالى مثل الكافرين والمؤمنين، فقال ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ﴾؛ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاء والمؤمنين السعداء، فأولئك كالأعمى والأصم، وهؤلاء كالبصير والسميع. فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا، وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه، أصم عن سماع

الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٢٣). وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب، بصير بالحق، يميز بينه وبين الباطل؛ فيتبع الخير ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فلا يُرَوِّج عليه باطل، فهل يستوي هذا وهذا.

﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٩) أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء، كما قال في آية الأخرى ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠)، وقال ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢١﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (٢٢).

الثالثة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَنظُرُكُمْ كَذِبِينَ﴾ (١٧).

الملاء هم: السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾؛ أي لست بملك، ولكنك بشر، فكيف أوحى إليك من دوننا؟ ثم ما نراك أتبعك إلا أراذلنا - كالباعة والحاكة وأشباههم - ولم يتبعك الأشراف ولا الرؤساء منا، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن [تمهل] منهم ولا فكرة ولا نظر، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك؛ ولهذا قال ﴿وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ﴾؛ أي في أول بادئ الرأي (وبادي الرأي؛ أي ظاهره الذي لا روية فيه ولا تمهل). ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ يقولون: ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق، ولا رزق ولا حال، لما دخلتم في دينكم هذا ﴿بَلْ نَنظُرُكُمْ

كذِبِك ﴿٢٧﴾؛ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح والعبادة، والسعادة في الدار الآخرة إذا صرتم إليها.

وهذا اعتراض الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه، وذلك دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه، فإن الحق في نفسه صحيح، وسواء اتبعه الأشراف أو الأراذل؛ بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف - ولو كانوا فقراء - والذين يابونه هم الأراذل - ولو كانوا أغنياء.

ثم الواقع غالباً أن [الذين] يتبعون الحق ضعفاء الناس، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته، كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾، ولما سأل هرقل - ملك الروم - أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم قال له فيما قال: أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم؟ قال: بل ضعفاؤهم. فقال هرقل: هم أتباع الرسل.

الرابعة: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

يقول تعالى: وكلُّ أخبار نقصها عليك، من أنباء الرسل المتقدمين قبلك مع أممهم، وكيف جرى لهم من المحاججات والخصومات، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين وخذل أعداءه الكافرين؛ كل هذا مما ثبت به قلبك يا محمد؛ أي ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة.

وجاءك الحق في هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء وكيف نجاهم الله والمؤمنين، وأهلك الكافرين، جاءك فيها قصص حق، ونبأ صدق، وموعظة يرتدع بها الكافرون، وذكرى يتوقَّر بها المؤمنون.

الخامسة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣).

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض، وأنه إليه المرجع والمآب، وسيوفى كل عامل عمله يوم الحساب، فله الخلق والأمر. فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه؛ فإنه كافٍ من توكل عليه وأتاب إليه. وقوله ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (١٢٣)؛ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين.





سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾.

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه؛ أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيـره رفعها عن الأرض بعداً لا تُنال ولا يُدرك مداها، فالسمااء الدنيا محيطـة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجـهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعـد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطـة بالسمااء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطـة بالثانية بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

❁ الثانية: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوي [في الآية السابقة] شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾؛ أي: جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات

شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقي ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين؛ أي من كل شكل صنفان.

﴿يُعْثِي أَيْلَ النَّهَارِ﴾؛ أي: جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضاً في الزمان كما تصرف في المكان والسكان.

الثالثة: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَوِّرَاتٌ وَجَنَّتْ مِّنْ أَعْنَبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

أي أراضٍ تجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سبخة مالحة لا تُنبت شيئاً.

وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض؛ فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه مرملة، وهذه سميقة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى؛ فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفِضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾؛ أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع، في أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها.

فهذا في غاية الحلاوة وذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وهذا عذب، وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد من طبيعة واحدة -

وهو الماء - مع هذا الاختلاف الكبير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

الرابعة: ﴿لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّن بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه من ورائه ومن قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيحين: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون».





سُورَةُ النَّحْلِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ❁.

يمتنُّ تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام - وهي الإبل والبقر والغنم - كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون، ومن ألبانها يشربون، ويأكلون من أولادها.

❁ الثانية: ﴿وَتَحْمِلُ أُنْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ۗ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ❁.

وهي الأحمال المثقلة التي تعجزون عن نقلها وحملها، إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وذلك في الحج والعمرة والغزو والتجارة، وما جرى مجرى ذلك، تستعملونها في أنواع الاستعمال؛ من ركوب وتحميل، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرٌ ۖ وَمِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ❁ (٦١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ❁ (٧٢)، وقال تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ❁ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ❁ (٨٠)؛ ولهذا قال هاهنا بعد تعداد هذه النعم ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ❁ (٧)؛ أي: ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام وسخرها لكم،

كما قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾، وقال ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ أَفْئَاكٍ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿٧٣﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

الثالثة: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

لما ذكر سبحانه ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب، شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزال المطر من السماء - وهو العلو - مما لهم فيه [فائدة] ومتاع لهم ولأنعامهم، فقال ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾؛ أي: جعله عذبا زلالا يسوغ لكم شرابه، ولم يجعله ملحا أجابا.

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: وأخرج لكم به شجرا ترعون فيه أنعامكم، ومنه الإبل السائمة؛ والسوم: الرعي.

الرابعة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ رَبِّكَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخير الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السموات نورا وضياء لمهتدين بها في الظلمات، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله تعالى فيه، يسير بحركة مقدرة، لا يزيد عليها ولا ينقص منها، والجميع تحت قهره وسلطانه وتسخيره وتقديره وتسيسيره؛ ولهذا قال ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي:

لدلالات على قدرته الباهرة وسلطانه العظيم، لقوم يعقلون عن الله ويفهمون حججه .

الخامسة: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج، ويمتن على عباده بتذليله لهم، وتيسيره للركوب فيه، وجعله السمك والحيتان فيه، وإحلاله لعباده لحمها حيها وميتها، في الحل والإحرام وما يخلقه فيه من اللآلئ والجواهر النفيسة، وتسهيله للعباد استخراجها من قرارها حلية يلبسونها، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره؛ أي: تشقُّه .

السادسة: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

ثم ذكر تعالى الأرض، وما جعل فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات؛ لتقر الأرض ولا تميد؛ أي: تضطرب بما عليها من الحيوان، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك .

وقوله ﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا﴾؛ أي: وجعل فيها أنهارًا تجري من مكان إلى مكان آخر، رزقًا للعباد، ينبع في موضع وهو رزق لأهل موضع آخر، فيقطع البقاع والبراري [والصحاري]، ويخترق الجبال والآكام، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله .

وهي سائرة في الأرض يمينة ويسرة، وجنوبًا وشمالًا وشرقًا وغربًا، وأودية تجري حينًا وتنقطع في وقت، وما بين نبع وجمع، وقوي السير

وبطيئته، بحسب ما أراد وقدر، وسخر ويسر فلا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وكذلك جعل فيها سبلاً؛ أي: طُرُقًا يسلك فيها من بلاد إلى بلاد، حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾.

السابعة: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم وإحسانه إليهم، فقال ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾؛ أي: يتجاوز عنكم، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم، ولكنه غفور رحيم؛ يغفر الكثير، ويجازي على اليسير.

الثامنة: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم، وأنه لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة؛ أي: لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم، ولكن الرب عَلَّمَهُمْ يحلم ويستتر، وينظر إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى؛ أي: لا يعاجلهم بالعقوبة؛ إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً.

التاسعة: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّئَلَّا تُؤْكِرُوا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ ذُرِّيَّتِكُمْ وَمَا يُؤْكِرُونَ﴾.

يقول تعالى: وإن لكم أيها الناس في الأنعام - وهي: الإبل والبقر

والغنم - لعبرة؛ أي: لآية ودلالة على قدرة خالقها وحكمته ولطفه ورحمته، نسقيكم مما في بطن هذا الحيوان.

وقوله ﴿مَنْ بَيْنَ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا﴾؛ أي: يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته؛ تصرّف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا [يختلط] بالآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير به.

﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (٦٦)؛ [أي لذيذاً هيناً لا يغص به من شربه].
يقال: ساغ الشراب؛ أي سهل مدخله في الحلق.

العاشرة: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨).

ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار اللاتي بها يحسون المرئيات، والأفئدة - وهي العقول - التي بها يميز بين الأشياء ضارها ونافعها. وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج قليلاً قليلاً كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده.

وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان؛ ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه، كما جاء في صحيح البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يقول تعالى: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى

أحبه، فإذا أحببته؛ كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني لَأَعْطِيَنَّهُ، ولئن دعاني لَأَجِيبَنَّه، ولئن استعاذ بي لَأَعِيزَنَّه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه».

فمعنى الحديث: أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله وَعَجَّلَ فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله؛ أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله وَعَجَّلَ مستعيناً بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في رواية أخرى، بعد قوله: «ورجله التي يمشي بها»: فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي.

الحادية عشرة: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أخبر تعالى عن كفر به بعد الإيمان والتبصُّر، وشرح صدره بالكفر واطمأن به: أنه قد غضب عليه؛ لعلمهم بالإيمان ثم عدولهم عنه، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة؛ لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين الحق؛ فطبع على قلوبهم فلا يعقلون بها شيئاً ينفعهم، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها، ولا أغنت عنهم شيئاً، فهم غافلون عما يراد بهم.

وأما قوله ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه: أنه أسرته الروم، فجاءوا به إلى ملكهم، فقال له: تنصّر (أي ادخل في دين النصرانية) وأنا أشركك في ملكي وأزوجك ابنتي، فقال له: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما تملكه العرب، على أن أرجع عن دين محمد صلى الله عليه وآله طرفة عين ما فعلت! فقال: إذن أقتلك، قال: أنت وذاك؛ فأمر به فُصِّل، وأمر الرماة فرموه قريباً من يديه ورجليه، وهو يعرض عليه دين النصرانية، فيأبى ثم أمر به فأُنزل، ثم أمر بقدر فأحميت، وجاء بأسير من المسلمين فألقاه وهو ينظر؛ فإذا هو عظام تلوح [فوق الزيت] وعرض عليه [دين النصرانية] فأبى، فأمر به أن يُلقى فيها، فرفع ليُلقى فيها، فبكى، فطمع فيه ودعاه فقال له: إني إنما بكيت لأن نفسي إنما هي نفس واحدة تُلقى في هذه القدر الساعة في الله، فأحبيت أن يكون لي بعدد كل شعرة في جسدي نفس تعذب هذا العذاب، فقال له الملك: فقبل رأسي وأنا أطلقك، فقال: وتطلق معي جميع أسارى المسلمين؟ قال: نعم. فقبل رأسه، فأطلقه وأطلق معه جميع أسارى المسلمين عنده، فلما رجع قال عمر بن الخطاب: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبد الله بن حذافة، وأنا أبدأ؛ فقام فقبل رأسه.





سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الاولى﴾: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار؛ ليسكنوا في الليل وينتشروا في النهار للمعاش والاصناعات والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع (أي الأسابيع) والشهور والأعوام، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجازات وغير ذلك؛ ولهذا قال ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقًا واحدًا وأسلوبًا متساويًا؛ لما عرف شيء من ذلك؛ كما قال تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿الثانية﴾: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَازِدُ وَزُرْ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَقَّ نَبْعَثُ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ومن ضل عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجني على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه.

ثم قال ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾؛ أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجني جان إلا على نفسه، كما قال تعالى ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلًا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾.

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾، وقوله تعالى ﴿وَمِنَ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾؛ فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم في أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥)؛ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى ﴿كَلَّمَآ أَلْفَىٰ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)﴾، وكذا قوله ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ﴾ (٧).

الثالثة: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٢٩).

يقول تعالى أمراً بالاقتصاد في العيش دائماً للبخل ناهياً عن السرف

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾؛ أي: لا تكن بخيلاً منوعاً لا تعطي أحداً شيئاً، كما قالت اليهود ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ فنسبوه إلى البخل تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾؛ أي: ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك وتخرج أكثر من دخلك فتتعد ملوماً محسوراً؛ أي فتتعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك.

الرابعة: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة فإنه إذ لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم وأخرج الكلام إلى الفعل ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة؛ فإن الشيطان ينزغ في يده؛ أي: فربما أصابه بها.

الخامسة: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

[وهذه الآية] لا تنافي ما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء». فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد العصبية لا بمقتضى الدليل، فإن دل الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم - وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من القرآن في سورة الأحزاب - ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ

مَرِيْمَ ﴿١٤٠﴾ ، وفي الشورى في قوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ ؛ ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى ثم عيسى .

السابعة: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٤١﴾﴾ .

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ولهذا قال ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ﴾ ؛ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله . كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلا جدته عفواً كريماً، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه - رضي الله عنه وأرضاه .

وقوله ﴿فَلَمَّا بَجَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ ؛ أي: نسيتم ما عرفتم من توحيدهِ في البحر وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له .
﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٤١﴾﴾ ؛ أي: سجيته [وطبعه] هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

السابعة: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ .

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم وتكريمه إياهم في خلقه لهم على

أحسن الهيئات وأكملها كما قال ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ أي: يمشي قائماً منتصباً على رجله ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله وينتفع به ويفرق بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدنيوية والدينية.

ورزقناهم من الطيبات؛ من زروع وثمار ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي.

الثامنة: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ - وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد - إنه ﴿شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: أي: يذهب ما في القلوب من أمراض؛ من شك ونفاق، وشرك وزيف وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله.

وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقته واتبعه، فإنه يكون شفاء في حقه ورحمة.

وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بُعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة [والخلل] من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ

وَقَرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمِّيٌّ، وقال تعالى ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ
أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

[فالقُرآن شفاءً معنويًّا لأمراض القلوب وعِلل النفوس، فيُخَلِّص
المسلم من القلق والحيرة، ويجتث ما في نفسه من الغل والحقد
والحسد، إلى غير هذا من أمراض معنوية، وهو شفاء لأمراض البدن؛
كما رُوِيَ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه خرج على رأس سرية وقد
مروا بقوم، وطلبوا منهم الطعام، فأبوا إطعامهم، وحدث أن لدغ كبير
القوم وسيدهم (أي لدغته حية)، واحتاجوا إلى من يداويه فطلبوا من
يرقيه، فقالوا: لا نرقيه إلا بجعل (أي اجعلوا لنا أجرة مقابل هذا
العمل)، وذلك لما رأوه من بُخلهم وعدم إكرامهم لهم، ولما اتفقوا
معهم على جُعل من الغنم قام أحدهم برقية اللديغ بسورة الفاتحة فبرئ،
فعادوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسألوه عن حلّ هذا الجُعل، فقال:
«وما أدراك أنها رقية»؛ أي: أنها رقية يُرقى بها المريض فيبرأ بإذن الله.

فشفاء أمراض البدن شيء موجود في السُّنة، وليس عجيبة من
العجائب؛ لأنك حين تقرأ كلام الله فاعلم أن المتكلم بهذا الكلام هو
الحق سبحانه، وهو رب كل شيء ومليكه، يتصرف في كونه بما يشاء،
وكلمة كن يفعل ما يريد، وليس ببعيد أن يؤثر كلام الله في المريض
فيشفى].

التاسعة: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَىٰ الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ

يُتُوسًّا ﴿٨٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم الله

تعالى في حالتي سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد؛ أعرض عن طاعة الله وعبادته ونأى بجانبه، وبأنه إذا مسه الشر - وهو المصائب والحوادث والنوائب - (كان يئوساً)؛ أي: قنط أن يعود ويحصل له بعد ذلك خير.

العاشرة: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ .

يقول تعالى لرسوله - صلوات الله عليه وسلامه - قل لهم يا محمد: لو أنكم - أيها الناس - تملكون التصرف في خزائن الله، لأمسكتم خشية الفقر؛ أي: خشية أن تذهبوها، مع أنها لا تفرغ ولا تنفذ أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم، وكان الإنسان بخيلاً منوعاً.

وقال الله تعالى ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمَلِكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾؛ أي: لو أن لهم نصيباً في ملك الله لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير (والنقير؛ هو حفرة صغيرة وسط نواة التمر)، والله تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾؛ ويدل هذا على كرم [الله] وجوده وإحسانه.

الحادية عشرة: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، أنه بالحق نزل؛ أي: متضمناً للحق، كما قال تعالى ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾؛ أي: متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه؛ من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله ﴿وَالْحَقُّ نَزَّلٌ﴾؛ أي: ووصل إليك - يا محمد - محفوظًا محروسًا، لم [يختلط] بغيره، ولا زيد فيه ولا نقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القوى، القوي الأمين المكين المطاع في الملاء الأعلى - جبريل عليه السلام.





سُورَةُ الْكَهْفِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ❁ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ❁

[الله] تعالى يحمد نفسه المقدسة عند فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد في الأولى والآخرة؛ ولهذا حمد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فإنه أعظم نعمة أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتابًا مستقيمًا لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدي إلى صراط مستقيم، بيّنًا واضحًا جليًا، نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ ولهذا قال ❁ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ❁؛ أي: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلًا؛ بل جعله معتدلًا مستقيمًا.

❁ الثانية: ❁ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ❁

ذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ (كبار السن)، الذين قد عتوا في دين الباطل؛ ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابًا. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بقوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا.

الثالثة: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩).

قوله ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾؛ أي: كتاب الأعمال، الذي فيه [العظيم] والحقير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾؛ أي: [خائفين] من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾؛ أي: يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمالنا، [وهذا الكتاب] لا يترك ذنبًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا عملاً وإن صغر إلا ضبطها، وحفظها.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾؛ أي: من خير أو شر، كما قال تعالى ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، وقال تعالى ﴿يَبْنُوا لِلْإِنْسَانِ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١٣)، وقال تعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ (٩)؛ أي: تظهر المخبات والضمائر.

وقوله ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (٤٩)؛ أي: فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعًا، ولا يظلم أحداً من خلقه، بل يغفر ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصي، ثم ينجي أصحاب المعاصي، ويخلد فيها الكافرون، وهو الحاكم الذي لا يجور ولا يظلم، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠)، وقال ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيبًا﴾ (٤٧)، والآيات في هذا كثيرة.

الرابعة: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مَخَذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا﴾ (٥١).

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقي للسماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وحدي، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير، ولا مُشير ولا نظير، كما قال ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٢٢)؛ ولهذا قال ﴿وَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُونَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١)؛ أي: أعواناً [وأنصاراً].

الخامسة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (٥١).

يقول تعالى: ولقد بينا للناس في هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة.

السادسة: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (١٠٩).

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذي تُكتبُ به كلماتُ ربي وحكمه وآياته الدالة عليه، ﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾؛ أي: لفرغ البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾؛ أي: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلمَّ جرّاً، بحور تمده ويكتبُ بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ

يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَمْجُرٍ مَا نَفَدَتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ .
 يقول: لو كان البحر مداً لكلمات الله، والشجر كله أقلام،
 لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفتنيها
 شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى
 يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق ما نقول.





سُورَةُ مَرْيَمَ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (١٦).

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام وأنه أوجد منه - في حال كبره وعقم زوجته - ولدًا زكيًا طاهرًا مباركًا - عطف بذكر قصة مريم في إيجادها ولدها عيسى عليه السلام منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة؛ ولهذا ذكرهما في آل عمران وهاهنا وفي سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى؛ ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه، وأنه على ما يشاء قادر.

وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود عليه السلام وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة؛ أي: تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك ﴿فَنَقَبَلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾، ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم.

ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾، فذكر أنه كان يجد عندها [فاكهة] الشتاء في الصيف [وفاكهة] الصيف في الشتاء.

فلما أراد الله تعالى - وله الحكمة والحجة البالغة - أن يوجد منها عبده ورسوله عيسى ﷺ أحد الرسل من أولي العزم الخمسة العظام، ﴿أَنْتَبَدْتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: اعتزلتهم وتنحّيت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

الثنائية: ﴿فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ قَالَتْ إِنَّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا ﴿١٨﴾﴾.

استترت منهم وتوارت، فأرسل الله تعالى إليها جبريل ﷺ فتمثل لها بشراً سويًّا؛ أي: على صورة إنسان تام كامل.

لما [ظهر] لها الملك في صورة بشر، وهي في مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريد لها على نفسها، فقالت ﴿إِنِّيَأَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ نَفِيًّا ﴿١٨﴾﴾؛ أي: إن كنت تخاف الله. تذكير له بالله، وهذا هو المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوّفته أولاً بالله - رَجَّلْ.

فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكني رسول ربك؛ أي: بعثني إليك ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾.

الثالثة: ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾.

فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد

منك غلامًا، وإن لم يكن لك زوج ولا توجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر؛ ولهذا قال ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾؛ أي: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذي نُوِّع في خلقهم؛ فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

الرابعة: ﴿فَاخْلَفَ الْأَحْزَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣٧).

تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولدًا. ولكن أنظرهم [وأمهلهم] تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حِلْمًا وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذي لا يُعْجَل على من عصاه.

كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (١٠٢).

وفي الصحيحين - أيضًا - عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافهم». وقد قال الله تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ (٤٨)، وقال ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ (٤٢).

الخامسة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ (٤٤).

يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون

ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يدعي مُلْكًا ولا تصرُّفًا، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تُظلم نفسٌ شيئًا، ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب الموت على خلقه حين خلقهم، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذي حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

السادة: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧٦﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿٧٧﴾﴾.

أي: إذا مر الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم.

فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التي كانت في الدنيا، ثم يشفعون في أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم - وهي مواضع السجود - وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولًا من كان في قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار من قال يومًا من الدهر: لا إله إلا الله. وإن لم يعمل خيرًا قط، ولا يبقى في النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿٧٧﴾﴾.

السابعة: ﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آٰيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾﴾ .

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان أنهم يصدون عن ذلك، ويُعْرِضُونَ ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾﴾؛ أي: أحسن منازل وأرفع دورًا وأحسن نديًّا، وهو مجمع الرجال للحديث؛ أي: ناديهم أعمر وأكثر واردًا وطارقًا، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك الذين هم مختفون مستترون في دار الأرقم بن أبي الأرقم ونحوها من الدور على الحق؟! كما قال تعالى مخبرًا عنهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾، وقال قوم نوح ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ .

ولهذا قال تعالى رادًّا عليهم شبهتهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾؛ أي: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكتناهم بكفرهم ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا ﴿٧٤﴾﴾؛ أي: كانوا أحسن من هؤلاء أموالًا وأمتعة ومناظر وأشكالًا .

الثامنة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿١٥٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿١٥٦﴾﴾ .

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه في الدار الدنيا واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه يحشرهم يوم القيامة وفدًا إليه .

والوفد: هم القادمون ركبانا، ومنه الوفود وركوبهم، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه . وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يُساقون عنفًا إلى النار ﴿وَرِدًّا﴾؛ أي: عطاشًا .



سُورَةُ طه

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (٤٤).

هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشي عند قوله ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾: يا من يتحجب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل؛ ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.

❁ الثانية: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ (٤٦).

لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأيدي.

❁ الثالثة: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِىٰ﴾ (٥٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ (٥٩).

[يقول الله لآدم ﷺ إن لك في الجنة ألا تجوع فيها ولا تعرى]، وإنما قرن بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذلُّ الباطن، والعري ذلُّ الظاهر. وأنت لا تظماً فيها ولا تضحى، وهذان أيضاً متقابلان؛ فالظماً: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر.

الرابعة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤).

أي خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداة ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾؛ أي: في الدنيا؛ فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد؛ فهذا من ضنك المعيشة.

الخامسة: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٢١).

يقول تعالى لنبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين وأشباههم ونظرائهم، وما فيه من النعم فإنما هو زهرة زائلة؛ لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادي الشكور.

وكذلك ما ادخره الله تعالى لرسوله في الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحدُّ ولا يُوصف، كما قال تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ (٥)، ولهذا قال ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١٢١).



سُورَةُ الْحَجِّ

ومنها جمعت هاتيد الدرر تيد:

❁ الأولى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغَيِّرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضًا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء.

❁ الثانية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِإِنْفُسِهِمْ أَنْ يُرْفَعُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

قال غير واحد من السلف هذه أول آية نزلت في الجهاد.

وقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾؛ أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، كما قال ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَّخَمْتُمُوهُمُ فَشَدُّوا أَلْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّبَلَاغِ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤٤﴾﴾ سَيِّدِيهِمْ وَيُضِلِّحُ بِهِمْ ﴿٥٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦٦﴾﴾، وقال تعالى ﴿قَتَلْتَهُمْ

يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَبْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورِ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْنَ مَنْ يُشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ،
 وقال ﴿أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
 الضَّالِّينَ﴾ ﴿١٦﴾ ، وقال ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالضَّالِّينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ
 أَخْبَارًا﴾ ﴿٣١﴾ .

وإنما شرع الله تعالى الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمر المسلمين - وهم أقل من العشر - بقتال الباقيين لشق عليهم؛ ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ وكانوا نيفاً وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي يعنون أهل منى ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا». فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره وصارت لهم دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه؛ شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك.





سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

الخشوع في الصلاة إنما يحصل بمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرّة عين، كما قال النبي ﷺ: «حُبَّ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

الثانية: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبده التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، في إنزاله القطر من السماء بقدر؛ أي: بحسب الحاجة، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به.

وقوله ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض، وجعلنا في الأرض قابلية له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله ﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾؛ أي: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السبخ والبراري والبحار والقفار

لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه [مالحًا] أجاجًا لا يُنتفع به لشرب ولا لسقي
لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل
فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا؛ ولكن بلطفه
ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذبًا فُراتًا زُلًّا؛ فيسكنه في
الأرض، ويسلكه ينابيع في الأرض؛ فيفتح العيون والأنهار؛ فيسقي به
الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون منه
وتتطهرون وتنظفون، فله الحمد والمنة.

الثالثة: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
عَلِيمٌ﴾ (٩٣)

أمر تعالى عباده المرسلين - عليهم الصلاة والسلام - أجمعين بالأكل
من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عون
على العمل الصالح، فقام الأنبياء ﷺ بهذا أتم القيام، وجمعوا بين كل
خير - قولًا وعملاً ودلالة ونصحًا - فجزاهم الله عن العباد خيرًا.

الرابعة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٩٣)

يقول تعالى مُنْكَرًا على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم
وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خُصُّوا بهذا الكتاب الذي لم
ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآباؤهم الذين ماتوا
في الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء
أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها،
والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن
أسلم واتبع الرسول - صلوات الله وسلامه عليه، ورضي عنهم.



سُورَةُ الْفُرْقَانِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٣).

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك [لزم] الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا، فكيف يملكون لعبادتهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ (٣)؛ أي: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله وَجَلَّ، الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم؛ فهو الله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عدل ولا نديد ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

❁ الثانية: ﴿وَقَالُوا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فِيهِ نُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةٌ وَأَصِيلًا﴾ (٥).

يعنون كتب الأوائل استنسخها فهي تُقرأ عليه بكرة وأصيلًا؛ أي: في أول النهار وآخره.

وهذا الكلام - لسخافته وكذبه وبهته منهم - كل أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة: أن محمداً رسول الله لم يكن [يكتب ولا يقرأ] شيئاً، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحواً من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بعثه [الله] إلا [الصادق] الأمين؛ لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، [واحتاروا] ماذا يقذفونه به؛ فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب؛ قال الله تعالى ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾﴾.

الثالثة: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾.

قال تعالى في جواب ما عاندوا هاهنا وافتروا ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخريين إخباراً حقاً صدقاً مطابقاً للواقع في الخارج، ماضياً ومستقبلاً ﴿أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ﴾؛ أي: الله الذي يعلم غيب السماوات والأرض، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر.

وقوله ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [دعاهم الله] إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، وأن من تاب إليه تاب عليه.

فهؤلاء مع كذبهم وافتراءهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى؛ كما قال تعالى [داعياً النصارى إلى التوبة بعد أن ادعوا أن له ولداً] ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٦) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ .

الرابعة: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (٢٣) .

وهذا يوم القيامة، حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من خير وشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال - التي ظنوا أنها منجاة لهم - شيء؛ وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصاً وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معاً، فتكون أبعد من القبول حينئذٍ.

ومضمون الآية أنهم عملوا أعمالاً اعتقدوا أنها شيء، فلما عُرضت على الملك الحكيم العدل الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، إذا إنها لا شيء بالكلية. وشبَّهت [أعمالهم] في ذلك بالشيء التافه الحقيق المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية؛ [فشبه أعمالهم بأنها مثل الغبار والتراب الدقيق الذي يطير ويضيع في الهواء].

[فأعمال الكفار من خير وبر وصدقة وغيرها لا يقبلها الله تعالى؛ لأنه فقدت الإيمان بالله، فالله تعالى لا يقبل العمل الصالح إلا بإيمان، وقد ضرب الله أمثلة عدة لأعمال الكفار؛ فقال:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ
حَرَثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ
(١٧)﴾، وقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي
يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبُعِيدُ (١٨)﴾،
وقال جل شأنه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى
إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾.

الخامسة: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٢٠)﴾.

ترك علمه وحفظه من هجرانه، وترك الإيمان به من هجرانه، وترك
تدبره وتفهمه من هجرانه، وترك العمل به وامتنال أوامره واجتناب
زواجره من هجرانه، والعدول عنه إلى غيره - من شعر أو قول أو غناء أو
لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره - من هجرانه، فنسأل الله الكريم
المنان القادر على ما يشاء، أن يخلصنا مما يسخطه، ويستعملنا فيما
يرضيه، من حفظ كتابه وفهمه، والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف
النهار، على الوجه الذي يحبه ويرضاه، إنه كريم وهاب.





سورة الشعراء

ومنها هذه الدرّة:

﴿قَالَتِي السَّحْرَةُ سَدَجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأُجْلِكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

وكان هذا أمراً عظيماً جداً، وبرهاناً قاطعاً للعدر وحجة دامغة؛ وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا [موسى] قد غلبهم [موسى] وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فعُلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحاً جريئاً؛ [فذهب] إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل؛ فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وقال ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِنُخْرَجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْمُونَ ﴿٢٣﴾﴾؛ [لكن تهديده لهم وتوعده إياهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب] ما زادهم إلا إيماناً وتسليماً؛ وذلك أنه قد كُشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، وأن الله قد أيد به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون ﴿ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؛ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ [لذلك أجابوا فرعون بقولهم] ﴿لَا ضَيْرٌ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾؛ أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به، فالمرجع إلى الله، وهو لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء.





سورة النمل

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ .

إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقته، وعمل بما فيه، وأقام الصلاة المكتوبة، وآتى الزكاة المفروضة، وآمن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال، خيرها وشرها، والجنة والنار؛ كما قال تعالى ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۗ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ .

❁ الثانية: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدُبًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَّهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

أي: تلك السموات بارتفاعها وصفائها، وما جعل فيها من الكواكب النيرة والنجوم الزاهرة والأفلاك الدائرة، والأرض باستفالتها وكثافتها، وما جعل فيها من الجبال والأوعار والسهول، والفيافي والقفار، والأشجار والزرع، والثمار والبحور والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك .

وقوله ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾؛ أي: جعله رزقاً للعباد؛ فأثبتنا به بساتين ذات منظر حسن وشكل بهي، لم تكونوا تقدرُونَ على إنبات شجرها، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق، المستقل بذلك المتفرد به، دون ما سواه من الأصنام والأنداد؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقوله ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾؛ أي: هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لا شريك له، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لا يخلق ولا يرزق، وإنما يستحق أن يُفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق؛ ولهذا قال ﴿أَأَلَّهُمْ مَعَ اللَّهِ﴾؛ أي: هل مع الله إله يُعبد؟! وقد تبين لكم، ولكل ذي لب مما يعرفون به أيضاً أنه الخالق الرازق.

ثم قال في آخر الآية ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾؛ أي: يجعلون لله عدلاً ونظيراً.

الثالثة: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلْ خَلْقَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلْ لَهَا رَاسِيًا وَجَعَلْ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَمْ نَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي [جعل الأرض مستقرة] ساكنة ثابتة، لا تميد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً بساطاً ثابتة لا تنزل ولا تتحرك، جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة تشقُّها في خلالها، وصرفها فيها ما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه، وجعل فيها جبلاً شامخة تُرسي الأرض وتثبتها؛ لئلا تميد بكم [وتضطرب]، وجعل بين المياه العذبة والمالحة

حاجزاً مانعاً يمنعها من الاختلاط، لئلا يفسد هذا بهذا وهذا بهذا، فإن الحكمة الإلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس. والمقصود منها: أن تكون عذبة زلاً لا يُسقى الحيوان والنبات والثمار منها. والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب. والمقصود منها: أن يكون ماؤها ملحاً أجاباً؛ لئلا يفسد الهواء بريحتها.

الرابعة: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

يبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد، المرجو عند النوازل، كما قال ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾، وقال تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ﴾. وهكذا قال هاهنا ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾؛ أي: من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه.

ويجعلكم خلفاء الأرض أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، وقوماً بعد قوم. ولو شاء لأوجدكم كلهم في وقت واحد، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين، كما خلق آدم من تراب؛ فكانت تضيق عليهم الأرض وتضيق عليهم معاشهم وأكسابهم، ويتضرر بعضهم ببعض؛ ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة، ثم يكثرهم غاية الكثرة، ويذراهم في الأرض، ويجعلهم قروناً بعد قرون، وأمماً بعد أمم؛ حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية، كما قدر ذلك تبارك وتعالى، وكما أحصاهم وعدهم عدداً، ثم يقيم القيامة، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله.



سُورَةُ الْقَصَصِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الْأُولَى﴾: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾.

تكبر [فرعون] وتجبر وطغى، وجعل أهل [مصر] أصنافاً، قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته.

وكان بنو إسرائيل في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أحسن الأعمال، [ويرهقهم] ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم؛ إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام، يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه.

وكانت القبط [قوم فرعون] قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى، حين أخذ سارة ليتخذها جارية؛ فصانها الله منه، ومنعه منها بقدرته وسلطانه؛ فبشّر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك ملك مصر على يديه، فكانت القبط تتحدث بهذا عند فرعون، فاحترز فرعون من ذلك، وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر؛ لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولكل أجل كتاب.

الثانية: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى، فما نفعه ذلك مع قدر الملك العظيم الذي لا يُخالف أمره القدري، بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القَدَم بأن يكون إهلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده، وقتلت بسببه أُلوفًا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك، وفي دارك، وغذاؤه من طعامك، وأنت تربيته وتدله وتنفداه، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه؛ لتعلم أن رب السموات العلا هو القادر الغالب العظيم، العزيز القوي الشديد، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

الثالثة: ﴿وَمَا أُوتِئْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

يقول تعالى مُخبرًا عن حقارة الدنيا، وما فيها من الزينة الدنيئة والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المُقِيم، كما قال ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾، وقال ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾، وقال ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾، وقال ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

وقال رسول الله ﷺ: «والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه في اليم، فليُنظر به يرجع إليه». رواه مسلم.

أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة!؟

الرابعة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة في طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات، التي يحصل لك بها الثواب في الدار الآخرة، ولا تنس مما أباح الله فيها من المآكل والمشرب والملابس والمسكن والمناجح، فإن لربك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأت كل ذي حق حقه، وأحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك، ولا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به الأرض، وتسيء إلى خلق الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

الخامسة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض؛ أي: ترفُّعاً على خلق الله، وتعاضماً عليهم، وتجبراً بهم، ولا [يريدون] فساداً فيهم.





سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق، وإعراضاً عنه وتكذيباً له، وما آمن معه منهم إلا قليل، بعد هذه المدة الطويلة ما نفع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت - يا محمد - لا تأسف على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم؛ فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وييده الأمر وإليه ترجع الأمور، واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك، ويذل عدوك، ويجعلهم أسفل السافلين.

الثانية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ بَدَأَ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه، بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته؛ فإنه سهل عليه يسير لديه.

ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء؛ السموات وما فيها من الكواكب النيرة: الثوابت، والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال، وأودية وبرار وقفار، وأشجار وأنهار، وثمار وبحار، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار، الذي يقول للشيء كن فيكون؛ ولهذا قال ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

الثالثة: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، يرجون نصرهم ورزقهم، ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا [ينفعه] شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبه لله، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع فإنه مستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها؛ لقوتها وثباتها.

الرابعة: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

أخبرهم تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، فالله يقيض [لهم] ولها رزقها، وييسره عليهم؛ فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء.



سُورَةُ الرَّؤْفِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

﴿الاولى﴾: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته، الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، فقال ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾؛ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي، وما بينهما من المخلوقات المتنوعة، والأجناس المختلفة، فيعلموا أنها ما خلقت سُدى ولا باطلاً بل بالحق، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة.

﴿الثانية﴾: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

نبههم على صدق رسله فيما جاءوا به عنه، بما أيدهم به من المعجزات، والدلائل الواضحات، من إهلاك من كفر بهم، ونجاة من صدقهم، فقال ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماعهم أخبار الماضين؛ ولهذا قال ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾؛ أي: كانت الأمم الماضية والقرون السالفة

أشد منكم، وأكثر أموالاً وأولاداً، وما أوتيتم معشار ما أوتوا، ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه، وعمروا فيها أعماراً طويلاً فعمروها أكثر منكم، واستغلوها أكثر من استغلالكم، ومع هذا لما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا؛ أخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واقٍ، ولا حالت أموالهم ولا أولادهم بينهم وبين بأس الله، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٥٧)؛ أي: وإنما أوتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله، واستهزؤوا بها، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة وتكذيبهم المتقدم.

الثالثة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠).

ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب، ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ (٢٠)، فأصلكم من تراب، ثم من ماء مهين، ثم تصور فكان علقة، ثم مضغة، ثم صار عظاماً، شكله على شكل الإنسان، ثم كسا الله تلك العظام لحماً، ثم نفخ فيه الروح، فإذا هو سميع بصير، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن والحصون، ويسافر في أقطار الأقاليم، ويركب متن البحور، ويدور أقطار الأرض ويتكسب ويجمع الأموال، وله دهاء ومكر، ورأي وعلم، واتساع في أمور الدنيا والآخرة، كل بحسبه.

فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعاش والمكاسب، وفاوت بينهم في العلوم والفكرة، والحسن والقبح، والغنى والفقر، والسعادة والشقاوة.

الرابعة: ﴿وَمَنْ آتَيْنَاهُ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ النَّبِيِّكُمْ وَالنُّبِيِّكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢).

قوله ﴿وَأَخْلَفَ النَّبِيِّكُمْ﴾؛ يعني اللغات، فهؤلاء بلغة العرب، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى، وهؤلاء روم، وهؤلاء إفرنج، وهؤلاء بربر، وهؤلاء حبشة، وهؤلاء هنود، وهؤلاء أكراد، إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله من اختلاف لغات بني آدم، واختلاف ألوانهم، فجميع أهل الأرض منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كل له عينان وحاجبان، وأنف وجبين، وفم وخدان.

وليس يشبه واحد منهم الآخر، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمات أو الهيئة أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، يظهر عند التأمل، كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئة لا تشبه الأخرى، ولو توافق جماعة في صفة من جمال أو قبح، لا بد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر.





سُورَةُ الْقَمَانِ

ومنها هذه الدرّة:

﴿الْأُولَى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧)﴾.

[يخبر] تعالى عن عظّمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، وأن جميع أشجار الأرض لو جُعِلت أقلامًا، وجُعِل البحر مدادًا ومدّ [البحر] سبعة أبحر، فكُتبت بها كلمات الله الدالة على عظّمته وصفاته وجلاله؛ لتكسرت الأقلام، [وفني وذهب] ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددًا.

وقال الربيع بن أنس: لو كان البحر مدادًا لكلمات الله والأشجار كلها أقلامًا، لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه. إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول.





سُورَةُ سَبَأٍ

ومنها جمعت هذه الدرر:

❁ الأولى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١).

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة، المالك لجميع ذلك، الحاكم في جميع ذلك، والجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه، وهو المعبود أبداً، المحمود على طول المدى، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء.

❁ الثانية: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (٢).

أي: يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض، والحب المبدور فيها، ويعلم ما يخرج من ذلك: عدده وكيفيته وصفاته، وما ينزل من السماء من قَطْرٍ ورزق، وما يعرج فيها [ويصعد] من الأعمال الصالحة وغير ذلك، وهو الرحيم بعباده، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة، الغفور عن ذنوب عباده التائبين إليه المتوكلين عليه.

الثالثة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد؛ فإحداهن في سورة يونس ﴿وَيَسْتَأْذِنُكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾، والثانية هذه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، والثالثة في سورة التغابن ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾، فقله ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره ﴿لَا يُعْزِبُ عَنْهُ﴾ لا يغيب عنه، فالجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت فهو عالم أين ذهب وأين تفرقت، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة، فإنه بكل شيء عليم.





سُورَةُ الدَّارَاتِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٠).

فيها من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات، والمهاد والجبال، والأنهار والبحار، واختلاف ألسنة الناس وألوانهم، وما [خُلِقُوا] عليه من الإرادات والقوى، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، والسعادة والشقاوة، وما في تركيبهم من الحِكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه.

الثانية: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٧).

وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة؛ فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة، ولم يمتن عليهم أولاً فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل سمين مشوي، فقربه إليهم ولم يضعه، وقال: اقتربوا؛ بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٩١) على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل.

الثالثة: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩).

أي: جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، وليل ونهار،
 وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياء،
 وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات: جن وإنس، ذكور وإناث،
 ولهذا قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٩)؛ أي: لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك
 له.





سُورَةُ الْحَائِثِ

ومنها جمعت هذه الدرر:

الأولى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾.

[لما ذكر الله قبلها هذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ ذكر الآية هذه ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ آيَاتِنَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧﴾﴾؛ وفيها إشارة إلى أنه - تعالى - يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المُجدبة الهامدة بالغيث، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراہين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعّال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال.

الثانية: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فَرَنَهُ مُمْصِقًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٦﴾﴾.

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقرًا لها ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ونعمة زائلة، فقال ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ وهو: المطر الذي يأتي بعد قنوط [ويأس] الناس؛ [ثم بعد هذا الغيث ينبت الزرع] فيُعجب الزُّرَّاعُ نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث، [ومع مرور الأيام ترى ذلك] الزرع مصفرًا بعد ما كان خضرًا نضيرًا، ثم يكون بعد ذلك كله حطامًا؛ أي: يصير يبسًا متحطمًا، وهكذا الحياة الدنيا؛ تكون أولًا شابة، ثم تكون عجوزًا شوهاء، والإنسان كذلك في أول عمره وعنفوان شبابه غصًا طريا لين الأعطاف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة؛ فتتغير طباعه وينفذ بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخًا كبيرًا، ضعيف القوى، قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير.

ولما كان هذا المثل دالًّا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة، وأن الآخرة كائنة [واقعة] لا محالة، حذّر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير؛ فقال ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ .

وقوله ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ (١٨٥)؛ أي: هي متاع فانٍ [خادع] لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها». اقرؤوا ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ (١٨٥).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك».

ففي هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان، وإذا كان الأمر كذلك؛ فلهذا حثَّ الله على المبادرة إلى الخيرات؛ من فعل الطاعات، وترك المحرمات، التي تكفر عنه الذنوب والزلات، وتُحصّل له الثواب والدرجات.

الثالثة: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾؛ أي: لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا [جهدكم]، وإنما هو عن قدر الله وورقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله [فخرًا] وبطراً، تفخرون بها على الناس؛ ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾؛ أي: مختال في نفسه، متكبر فخور على غيره.



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	المقدمة
٧	من هو الإمام ابن كثير؟
١٥	سُورَةُ البَقَرَةِ
٢٨	سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ
٣٦	سُورَةُ النِّسَاءِ
٣٩	سُورَةُ الرَّعْدِ
٤٣	سُورَةُ الْاِنْفِرَاتِ
٤٥	سُورَةُ التَّوْبَةِ
٤٩	سُورَةُ يُونُسَ
٥٧	سُورَةُ هُوْدٍ
٦١	سُورَةُ الرَّعْدِ
٦٤	سُورَةُ الْحَافِ
٧١	سُورَةُ الْاِسْرَاءِ
٧٩	سُورَةُ الْكُفَةِ
٨٣	سُورَةُ مَرْيَمَ
٨٨	سُورَةُ طه
٩٠	سُورَةُ الْحَافِ
٩٢	سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ
٩٤	سُورَةُ الْفُرْقَانِ
٩٨	سُورَةُ الشُّعْرَاءِ

الصفحة

الموضوع

١٠٠	سُورَةُ التَّمِيمِ
١٠٣	سُورَةُ الْقَصَصِ
١٠٦	سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ
١٠٨	سُورَةُ الرُّومِ
١١١	سُورَةُ لُقْمَانَ
١١٢	سُورَةُ سَجْدَةٍ
١١٤	سُورَةُ الدَّارِجَاتِ
١١٦	سُورَةُ الْحَادِثِ
١١٩	الفهرس

صدر للمؤلف

